أسس تصور اسبينوزا الفلسفي للانفعالات

The foundations of Spinoza's philosophical conception of passions

إعداد

د. حمدي تريعي

Dr. Hamdi Triei

دكتوراه الفلسفة المعاصرة

جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاسة

Doi: 10.21608/mdad.2024.390947

استلام البحث	**٢ /٩/ ٢٠٢٤**
قبول النشر	**٢٠ / ٩ / ٢٠٢٤**

تريعي، حمدي (٢٠٢٤). أسس تصور اسبينوزا الفلسفي للانفعالات. ***المجلة العربية مـــــداد***، المؤسسة العربية للتربية والعلوم والآداب، مصر، ٨ (٢٧)، ١٥٧- ١٧٨.

http://mdad.journals.ekb.eg

ISSN : *2537-0847* eISSN : *2537-0898*

أسس تصور اسبينوزا الفلسفي للانفعالات

المستخلص:

لقد تخلصت الانفعالات في منظور التصور الهندسي لدى اسبينوزا من وسمها السلبي الذي طالها، والذي ظل محايثا لها في الفلسفات كلها، بهذا المعنى نفهم أن موقف اسبينوزا لا يدعو إلى القطيعة مع الانفعالات، كما هو حال المدارس الفلسفية التي سبقته، وإنما يحرص على ضرورة تعويض انفعال بانفعال آخر مضاد. وتأسيسا على هذا الفهم، لا يصير التحرر من هذه المشاعر والانفعالات صراعا للعقل ضد الهوى، كما هو الشأن عند ديكارت، بل هو قدرة على التعويض، يستند إليها الإنسان الحكيم في التصرف والمسلك، تمكنه من تحويل الانفعالات الحزينة إلى انفعالات مرحة، والأهواء المُنفعلة إلى أهواء فاعلة.

الكلمات المفتاحية: فلسفة اسبينوزا- نظرية الانفعالات – منظور التصور الهندسي.

Abstract:

In Spinoza's geometric framework, passions shed their traditionally negative connotations, a stigma that had persisted in earlier philosophical thought. Unlike his predecessors, Spinoza does not call for a rejection of passions. Instead, he advocates for the strategic replacement of one passion with its opposite. This approach shifts the process of emotional liberation from a battle between reason and passion, as seen in Descartes' philosophy, to a practice of substitution. The wise individual, drawing on this understanding, can transform sorrowful emotions into joyful ones and convert passive passions into active ones, thereby navigating life with greater emotional resilience and adaptability.

Keywords: Spinoza's philosophy - Theory of emotions- geometric framework.

ISSN : *2537-0847* **eISSN :** *2537-0898*

إن مكانة اسبينوزا **(Spinoza)**، في تاريخ الفلسفة مكانة بالغة الأهمية واستثنائية، ولا أدل على ذلك ما قاله هيجل **(Hegel)**، في حقه: "إن اسبينوزا يبني نقطة فاصلة في الفلسفة الحديثة، بحيث يمكن القول حقا إننا أمام الخيار التالي: فإما أن نكون سبينوزيين وإما ألا نمارس الفلسفة"[1]، ولعل السبب في ذلك راجع إلى كون اسبينوزا قد أولى المطلق المكانة التي يستحقها، وربط بينه وبين الفكر. وإذا كان اسبينوزا، حسب هيجل، قد ربط بين المطلق والفكر، فذلك يعني، كما يقول بيير ماشري **(Pierre Macheri)**: "أنه لم يعد هناك شيء خارج العقل الذي ينطوي على كل شيء، وهكذا فكل فلسفة، بل الفلسفة ذاتها تصبح أمرا ممكنا"[2].

إن التصور الحيوي لفكر اسبينوزا، لم يحصل فهمه إلا في عهد قريب. فقبل القرن التاسع عشر كان ينظر إلى جميع الفلسفات بكونها تابعة للفلسفة السبينوزية، ومكملة لها، غير أن التأويلات المعاصرة للتصور السبينوزي قد خلصته من هذه العوائق التي لحقت به، إلى حد أصبح تصور اسبينوزا خصوصا مع التأويل الذي قدمه دولوز، تصورا مناقضا تماما للتصور الديكارتي، سواء تعلق الأمر بالمقدمات، أو بالامتدادات. وغير بعيد عما ذهب إليه مارسيال غيرو**(Martial Gueroult)**، وهو من خيرة المتخصصين في فلسفة اسبينوزا والعارفين بثناياها وانطواءاتها، حيث اعتبر أن المكانة الاستثنائية التي تحتلها فلسفة اسبينوزا، تعود أساسا إلى كونها قد أسست عقلانية مطلقة مختلفة عن كل الاتجاهات العقلانية الكبرى التي سادت في القرن السابع عشر عموما،

[1] Hegel, *Leçons sur l'histoire de la philosophie*, chap. Spinoza, in Hegel ou S pinoza de Pierre Mecherey, Paris, Maspero, 1979.
[2] Ibid., p.17.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

فعقلانية كل من ديكارت وليبنتز ومالبرانش ظلت عقلانية نسبية ولم تصل إلى مستوى المطلق.

تكمن عقلانية اسبينوزا في كونها تدعو إلى تصور يجعل العقل يتمتع بكل قدرات الفهم السليم الواضح والمتميز. وهذه القدرات التي يتمتع بها العقل لا تصد عنه باب المطلق، بل إنها تدفعه إلى فهمه وإدراكه إدراكا واضحا متميزا. والسبب في ذلك هو أن فهم الإنسان جزء من فهم اللامتناهي، وهو في الواقع حال من الأحوال اللامتناهية للفكر المماثل لصفة الإله.

لم تعد ماهية الإله، في الفلسفة السبينوزية، ماهية متعالية ومفارقة، بل أصبحت محايثة. لقد صار في مقدور الفهم أن يؤسسها كما يؤسس ماهية مثلث أو أي شيء هندسي آخر. كما أصبح في مقدوره أن يدرك ماهية الإله إدراكا واضحا وبينا كما يدرك أي شيء هندسي آخر. وعندما أقام اسبينوزا وحدة بين قدرة الإله وماهيته، فإنه جعل هذه القدرة في متناول فهم الإنسان، ولم تعد قدرةً تفعل كما تشاء، وإنما أصبحت قدرة تفعل وفق الماهية المطلقة، فإدراك ماهية الإله هو إدراك لقدرته.

هكذا أصبح الفعل الإلهي فعلا خاضعا لمبدأ الضرورة الذي يترتب عن الماهية. غير أن هذه القدرة التي تجعل الفهم الإنساني يدرك طبيعة الإله وفعله، هي التي تجعله أيضا يدرك ماهية النفس الإنسانية، "فالفهم الإنساني يدرك ماهية النفس كما يدرك ماهية الجسد، إدراكا مطابقا، أي أن له عنهما فكرة واضحة متميزة."[٣]، وإذا كانت الفلسفة الديكارتية قد تركت مسألة النفس والجسد غامضة، فإن فلسفة اسبينوزا ستجعل هذا الاتحاد أمرا يفهمه العقل ويدركه الفهم إدراكا سليما.

[٣] Cf, Martial, Gueroult, *Spinoza, I, Dieu*, Paris, Aubier, 1968, p.11.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

يقر اسبينوزا بكون الفهم الإنساني لا يدرك من طبيعة الإله سوى بعض الصفات، وهما الفكر والامتداد. أما الصفات اللامتناهية الأخرى، فإنه يقر بجهلنا بطبيعتها. لكن ذلك لا يحد من قدرات الفهم على إدراك المطلق. "ففضلا عن كون هذا الجهل (أي الجهل بالصفات الإلهية اللامتناهية الأخرى) هو حقيقة عقلية يمكن البرهنة عليها بشكل قبلي انطلاقا من طبيعة النفس، ومن كون الصفات في حالة تمييز حقيقي، فإنه لا يدخل أي بعد لاعقلاني في طبيعة الإله."[٤]

ثم إننا، لو وجهنا نظرنا إلى الأشياء الجزئية، فإننا ندرك من دون عناء أننا لا ندركها إدراكا واضحا ومتميزا، لكن ذلك لا يشكل قصورا في قدرتنا على الفهم والإدراك. وفضلا عن كون هذا الأمر حقيقة عقلية، فيمكن البرهنة عليها بشكل قبلي. فلا شيء البتة يمنعنا من معرفة مطابقة الماهية للأشياء، وأن يكون علمنا، في حدود ذلك، متماهيا مع العلم الإلهي، وتلك هي العقلانية المطلقة التي قال بها اسبينوزا.

إنها عقلانية لا يقف أمامها حاجز، بل إنها تدرك المجال الميتافيزيقي والفيزيائي، والنفسي، والأنطلوجي. هكذا نرى أن فلسفة اسبينوزا رفعت الإنسان إلى مستوى يجعله قادرا، إن هو استعمل الفهم السليم، على إدراك الطبيعة إدراكا متميزا وواضحا.

من جهة ثانية، اعتبر دولوز أن فلسفة اسبينوزا، وخصوصا في كتاب الإتيقا، فلسفة أسست لمستوى المحايثة، أي مستوى "يكون فيه كل شيء، الإله والطبيعة، النفس والجسد، الذات والموضوع، على المستوى نفسه"[٥].

هكذا يكون اسبينوزا قد فكر عكس التوجه الذي ساد في تاريخ الفلسفة، والذي يقول بالتعالي، الذي أخذ صورا عدة، إذ نسمع عن تعالي الإله عن المخلوقات، وتارة

[4] Ibid., p.11.
[5] Ibid., pp. 11-12.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

نسمع عن تعالي النفس عن الجسد، وأخرى عن تعالي الجوهر عن الأعراض.

غير أن هذا التعالي على المستوى الميتافيزيقي والإبستمولوجي، صاحبه تعال سياسي؛ فالنظم السياسية التي دافعت عن الفلسفة التقليدية كانت تنادي بتعال سياسي يجعل من السلطة الحاكمة تتمتع بحقوق تؤهلها للعبث بحقوق الآخرين.

في حين أن المحايثة التي ينادي بها اسبينوزا، والتي أقام دعائمها في كتاب "الإتيقا" تجعل من الإله والطبيعة على مستوى واحد، وتجعل من النفس والجسد على قدم المساواة، مشكلا بذلك توجها جريئا، لم يستطع الفلاسفة الآخرون سلوكه إلا بحذر وبقدر كبير من الحيطة، في حين أن "الفيلسوف الذي عرف حق المعرفة، يقول دولوز وغاتاري، بأن المحايثة ليست محايثة سوى لذاتها، وبأنها كانت بذلك مستوى تجتازه حركات اللامتناهي وتملأه الأراتيب التكثيفية، هو اسبينوزا، لذلك فهو أمير الفلاسفة"[٦].

تقصي هذه المحايثة قوة التعالي التي تواردت على تاريخ الفلسفة وحجمت قوى الوجود، لذلك يعتبر اسبينوزا "الفيلسوف الوحيد الذي لم يقدم أي تنازل للتعالي، والوحيد الذي طارده في كل مكان.

لقد أنجز حركة اللاتناهي وأعطى للفكر سرعات لا متناهية في الجنس الثالث من المعرفة ... لقد توصل فيه إلى سرعات خارقة ومختصرات مذهلة إلى درجة أننا لن نتحدث بصددها إلا عن الموسيقى وإعصار، عن ريح وأوتار. إن الحرية الوحيدة هي التي وجدها في المحايثة."[٧]، ومن ثم يعتبر اسبينوزا الفيلسوف الوحيد الذي لم يتنازل عن شرط الفلسفة الذي هو المحايثة، أي التفكير في الوجود من خلال الوجود. وبذلك،

[6] Deleuze Gilles - Guattari Felix, *Qu' est-ce que la philosophie*?, op. cit., p. 49
[7] Ibid., p. 50.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

"فقد أكمل الفلسفة لأنه أنجز فرضيتها الما قبل فلسفية"[٨].

ولعل أول موضوع شغل الدارسين بفلسفة اسبينوزا هو سبب تسمية كتاب الإتيقا بهذا الإسم، وهذا راجع عند اسبينوزا إلى كون "أغلب من كتبوا في العواطف وعن كيفية عيش الناس إنما يعالجون الأشياء التي هي خارج الطبيعة، لا الأشياء الطبيعية التي تسير وفق القوانين المشتركة للطبيعة، أكثر من ذلك، لأنهم يعتقدون أن الإنسان في الطبيعة إمبراطورية داخل إمبراطورية. ذلك لأنهم يعتقدون، أن الإنسان يشوش نظام الطبيعة أكثر مما يسير عليه، وأن لديه سلطة مطلقة على أفعاله، وأنه لا يخضع من جهة أخرى إلا لذاته"[٩]، مما يعني أن تصور اسبينوزا يخالف التصورات الفلسفية التي كانت تقوم على فكرة التعالي من جهة، والتصورات التي تقوم على فكرة الغائية من جهة أخرى. ففلسفة اسبينوزا تقوم على فكرة المحايثة، أي على مستوى يكون فيه كل شيء، الإله والطبيعة، النفس والجسد، الذات والموضوع، في المستوى ذاته.

وحيث إن التقليد الفلسفي السابق على اسبينوزا كان ينظر في الأخلاق من جهة كونها مجموع الأحكام والعادات والتصورات التي تكون في الغالب معيارية (عبارات أفعل ولا أفعل) من جهة، وإلى فكرة التعالي من جهة أخرى، عكس إتيقا اسبينوزا التي لا تقوم إلا على الفهم المحايث، بمعنى أن أخلاق اسبينوزا ليست أخلاقا أبيقورية لذوية بسيطة، وليست إنسانية (كأخلاق أريستبوس، أو أبيقور، أو توماس مور)، بل هي إتيقا فلسفية: إتيقا الفرح الحر، الذي يتأسس على العقل.

يوسم مبحث الإتيقا عند اسبينوزا بالجدة والفرادة، وتتحدد هذه الفرادة في الهدف الأسمى منها، وهو السعي نحو تقديم تصور محايث لطبيعة الإنسان، أي النظر إلى هذا

[8] Ibid.,

[9] Deleuze Gilles - Guattari Felix, *Qu' est-ce que la philosophie*?, op. cit., p. 50

ISSN : *2537-0847* eISSN : *2537-0898*

الأخير باعتباره جزءا لا يتجزأ من الطبيعة، فالإنسان ليس جوهرا كما الحال عند القدامى، بل هو حال من الأحوال اللامتناهية التي تترتب على الإله أو الطبيعة، ولم يعد الإنسان مملكة داخل مملكة، بمعنى أنه لم يعد يتصرف وفق إرادته ومشيئته ضد قوانين الطبيعة الكاملة واللامتناهية، بل صار كائنا يفعل نتيجة ضرورة طبيعته وماهيته.

ثانيا: دواعي إسقاط اسبينوزا للمنهج الهندسي في النظر إلى الانفعالات:

- لما كانت الطبيعة واحدة، فإن هناك منهجا واحدا لدراستها، وهو المنهج الهندسي.
- لما كان المنهج الهندسي يبدأ من الماهية المحققة للشيء إلى الخصائص المرتبة عنه، ولما كانت إمكانية النظر في الانفعالات لا يمكن أن تكون تجريبية، أدى إلى أن التصور الهندسي وحده هو الكفيل لتحقيق هذا الشأن.
- إن شأن اسبينوزا ليس النظر في الانفعالات والوجود الإنساني عامة، من وجهة نظر أخلاقية أو قيمية، بل هو النظر الذي يقوم على فهم العلل التي تدفع إلى هذا الانفعال أو ذاك.

ثالثا: في الفرق بين الأخلاق والإتيقا

يعتبر اسبينوزا أن أغلب من كتبوا في العواطف وعن كيفية عيش الناس إنما يعالجون الأشياء التي هي خارج الطبيعة، لا الأشياء الطبيعية التي تسير وفق القوانين المشتركة للطبيعة. وأكثر من ذلك، لأنهم يعتقدون أن الإنسان في الطبيعة إمبراطورا داخل إمبراطورية.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

إن الإنسان عند اسبينوزا ليس جوهرا، بل هو حال من الأحوال اللامتناهية التي تترتب عن الإله؛ فمن حيث كونه يتقوم بالجسد، فإنه حال من أحوال الامتداد، ومن حيث كونه يتقوم بالذهن، فإنه حال من أحوال صفة الفكر التي هي صفة لامتناهية.

للإنسان إذن حالان، جسد وذهن، لذلك لم يتبين اسبينوزا مفهوم الكوجيتو الديكارتي، وهو المفهوم القائم على كون النفس عبارة عن جوهر منفصل ومتعال عن الجسد، بل يمكن القول إن فلسفته كما تقدم هي بمثابة تحطيم للتعالي الذي جاء به الكوجيتو.

لا ينفصل ديكارت عن التصور الإلهي المتعالي حتى يضعنا أمام تعال جديد وهو الأنا المفكرة، في حين لا تشكل الأنا المفكرة والأنا الموجودة في الفلسفة السبينوزية نقطتين متميزتين، وإنما هما مجرد معاينتين إلى جانب المعاينات اللامتناهية التي قد يقوم بها الفكر، إذ "لا تتمتع الحقيقة الإنسانية بأي امتياز، فليس الإنسان موجودا بذاته، مثلما أنه ليس متصورا بذاته، ما دام الناس متعددين ولا يوجد إلا وجود جائز"[١٠].

على هذا الأساس يبين اسبينوزا أن الجسد حال من أحوال الامتداد، أما الذهن فهو حال من أحوال الفكر، مما يعني أن للإنسان حالين وهما الجسد والامتداد، حيث يقر عند حديثه عن الطبيعة الإنسانية التي هي حال متناه إلى جانب الأحوال اللامتناهية العدد، بأن ماهيات الأشياء الجزئية إنما هي كمال تام.

فكل الأشياء تعبر بكيفية معينة ومحددة عن الماهية الأزلية والكاملة التي تؤسس الإله، والتي وفقها يكون كل شيء موجودا فاعلا. وهذا الكمال الذي تتمتع به الماهية الأزلية والمطلقة لله، هو الذي تكون الماهيات الجزئية حالا من أحواله. لذلك، فلا

[10] Alquié, F, Le *Rationalisme de Spinoza*, Paris, Presses universitaires de France, 2001, p. 267.

ISSN : *2537-0847* eISSN : *2537-0898*

ماهيات الأشياء شيء يقودها إلى الهلاك أو الموت،" فالأجزاء الجزئية أحوال يعبر بها عن صفات بكيفية معينة ومحددة، أي أنها أشياء تعبر بكيفية معينة ومحددة عن قدرة الإله التي بمقتضاها يوجد ويفعل "[١١].

تنبني فلسفة اسبينوزا على رفض ثلاثة عناصر وهي: مسلمة الوعي (La conscience)، والقيم (Les valeurs)، والانفعالات الحزينة (les passions tristes)، والحقيقة أن دعوات رفضه لهذه المسلمات هي عينها نقط الالتقاء التي تجمعه بنيتشه"[١٢].

إن القلب الذي أحدثه اسبينوزا حول مسألة الوعي موجه أساسا إلى التصور الكلاسيكي وخصوصا عند ديكارت، الذي يقول: "إن ما هو انفعال بالنسبة لأحدهم هو دوما فعل بالنسبة لأحد غيره"[١٣] بمعنى أنه عندما تفعل النفس يركن الجسد إلى الانفعال، وحين يفعل الجسد تنفعل الروح كذلك، إن تصور اسبينوزا بهذا المعنى هو تحطيم للتعالي وتأسيس للمحايثة.

يدعونا اسبينوزا لأن نجعل من الجسد نموذجا (Modèle) قياسا إلى الوعي، نظرا لأنه يتجاوز أية معرفة نبنيها عليه، فحين يقول اسبينوزا: "إننا لا نعرف ما الذي يستطيعه جسد ما، فهذا القول يعني أنه لا يمكن أن نعرف الجسد، بل ما يمكن معرفته هو الجهل الذي يتملكنا إزاءه، إذ يوجد في الجسد من الأشياء التي تتجاوز معرفتنا. فما نفهمه من هذا الأمر هو أننا نتوصل، حين يكون الأمر متاحا وممكنا، لأن ندرك قوة

[١١] اسبينوزا، **الإتيقا**، مصدر سبق ذكره، ص. ١٦١.
[١٢] دولوز، جيل، **اسبينوزا فلسفة عملية**، ترجمة عادل حدجامي، دار توبقال للنشر، ط١، ٢٠١٥، ص. ٢٧.
[١٣] ديكارت، رينيه، **انفعالات النفس**، مصدر سبق ذكره، ص. ١٥.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

الجسد التي تتجاوز كل ما هو متاح لوعينا"[١٤].

رابعا: في الخير والشر، أو الحسن والقبح عند اسبينوزا

إن ما يؤكد دعوى أن فلسفة اسبينوزا فلسفة إتيقية عملية هو تصوره للحسن والقبيح؛ فالحسن هو ما يكون نافعا لحفظ وجودنا، وما يزيد قدرتنا على الفعل، أما القبيح فهو ما يضعف قدرتنا على الفعل أو يعوقها "ومن ثم ليست معرفة الحسن والقبيح، غير فكرة الفرح والحزن التي تترتب بالضرورة عن عاطفة الفرح والحزن"[١٥].

إذا كان التصور الكلاسيكي باعتباره محكمة الانفعالات، فإن اسبينوزا يخلص إلى أنه "يمكن إخماد ما يتولد عن المعرفة الصحيحة للحسن والقبيح من رغبة وإعاقته لرغبات أخرى كثيرة تتولد عن الانفعالات التي تجعلنا مضطربين"[١٦]، إن الانفعالات بهذا المعنى هي وحدها التي تستطيع أن تعيق أو تقوي انفعالا آخر وليس العقل.

إن طبيعة الإنسان حسب اسبينوزا يحكمها الكوناتوس، وهو الجهد الذي يسعى به الكائن في الاستمرار في وجوده. هنا يقترب هذا الأخير من الفلسفة الرواقية "غير أن ما يفصل بين التصور الرواقي والتصور السبينوزي أن الرواقيين يجعلون الكوناتوس مفهوما داخل منظومة غائية، مثلما يجعلون موضوع الكوناتوس أمرا منفصلا عن هذا الجهد ذاته"[١٧]. فاسبينوزا لم يعط لهذا الجهد، وهذا السعي في الوجود أي معنى خفي (قوة خفية أو غريزة مضمرة)، بل جعلها هي نفسها الماهية الفعلية والمؤسسة للشيء

[١٤] دولوز، جيل، **اسبينوزا فلسفة عملية**، مرجع سبق ذكره، ص. ٢٧.
[١٥] اسبينوزا، **الإتيقا**، مصدر سبق ذكره، ص. ٢٤٥.
[١٦] المصدر نفسه، ص. ٢٥٠.
[17] Victor, Delbos, *Le spinozisme*, Librairie philosophique, Paris, troisième édition, 1950, p. 119.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

الجزئي. هكذا نرى أن الماهية في التصور السبينوزي تأخذ معنى أصيلا، إذ لم تعد تعني، كما الحال في الفلسفة الكلاسيكية، كمالا يتحقق مع الوجود، إذ صارت هي نفسها سعيا إلى الحفاظ على ذاته وعلى طبيعته.

إذا كان الكوناتوس يساوي بين الموجودات، أي بين الأشياء الجزئية، وإذا كان يجعل الإنسان كباقي الأشياء الجزئية الأخرى مجرد قوة تسعى إلى البقاء، فإنه يساوي بين الحكيم والجاهل، فالكوناتوس قوة من أجل البقاء في الوجود حتى عندما تتخذ الأفكار الباطلة مطية والمخيلة سبيلا، فلا فرق بين الحكيم والجاهل في الكوناتوس، إنهما متساويان في السعي إلى الاستمرار في الوجود، غير أن "الجاهل لا يشعر بالحياة، لأنه مغمور بشكل سلبي في عبودية الانفعالات (الحزينة)، عكس الفيلسوف الذي لا يتوقف أبدا عن أن يكون"[١٨].

يحمل مفهوم الكوناتوس تصورا جديدا لعلاقة الإنسان بالطبيعة؛ فإذا كان الكوجيتو الديكارتي يعلي من مرتبة الإنسان ليصبح متعاليا عن كل الموجودات الطبيعية، فإن الكوناتوس يساوي بين الإنسان وبين الموجودات الأخرى.

فالأشياء كلها، سواء كانت من طبيعة إنسانية أو من طبيعة غير إنسانية، إنما هي قوة وسعي من أجل الحفاظ على وجودها، علما أن الكوناتوس ليس قوة سكونية وآلية فحسب؛ إنه ليس قوة للحفاظ على الوجود فقط، أي ليس مجرد قوة للحفاظ على ما يؤسس للماهية الفعلية للشيء.

إن الكوناتوس في الفلسفة السبينوزية قدرة حفاظ واستمرار في الوجود، وقدرة لاكتساب قدرات أخرى كذلك، لذلك لا ينبغي فهم الكوناتوس وكأنه مفهوم مغلق، وكأنه

[18] Robert, Misrahi, *Le corps et l'esprit dans la philosophie de Spinoza*, Paris, PUF, 1990, p. 137-138.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

يسد الماهية على نفسها، بل الماهية عند اسبينوزا تأسيس منفتح على العالم والوجود. إنها ليست سعيا إلى البقاء فحسب، بل هي أيضا سعي من أجل النماء. وفي هذا السياق يقول اسبينوزا: "يجد الذهن في تخيل الأشياء وحدها التي تضع قدرته الذاتية على الفعل"[١٩].

غير أن هذا السعي نحو النماء لا يحققه الذهن والجسد بشكل مباشر ودون الوقوع في اصطدامات آتية من الخارج، والسبب في ذلك، أن الإنسان موجود وسط طبيعة لا متناهية التعدد والكثرة، لقد حمل اسبينوزا على الفكر الغائي عندما أقر بأنه ليس للطبيعة أي هدف أو غاية تهدف إليها، بل كل ما يحدث إنما يحدث وفق ضرورة أزلية ومطلقة، ومن ثم فيلست العلل الغائية، كما رأينا، إلا أوهاما إنسانية صعبة الزوال، ليس للطبيعة غاية تتمثل في خدمة مصلحة الإنسان كما اعتقد أصحاب الفكر الغائي.

يفيد ما تقدم أن الإنسان يتحدد بالسعي الدؤوب نحو الحفاظ على الذات، والزيادة من قدراتها، وأنه هو موجود وسط طبيعة لا متناهية تسير وفق قوانين أزلية ثابتة، لذلك فالإنسان نقطة وسط محيط لا محدود. وكونه كذلك يعني أنه ينفعل بكل ما يحدث حوله من آثار وأفعال وأحداث، لذلك فارتباطه بالانفعال هو ارتباط ماهوي، لأن الانفعالات تدخل في تحديد طبيعته.

ولما كان الإنسان يحيا وسط عالم يخضعه للانفعالات السلبية التي تكبله وتحجم قواه، فإن ذلك لا يعني أنه محكوم بالعبودية، وأن هذه العبودية قدر لا يرفع. وحيث إن موقف اسبينوزا لا يختلف كثيرا من حيث الهدف، أي تخليص الإنسان من العبودية، عن باقي المذاهب الأخلاقية الأخرى، فلا ينبغي الاعتقاد أن هناك تطابقا بين موقفه وتصوره وباقي المذاهب الأخلاقية الأخرى.

[١٩] اسبينوزا، **الإتيقا**، مصدر سبق ذكره، ص. ٢٠٥.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

يميز اسبينوزا بين الرغبة التي تتولد عن الفرح، والرغبة التي تتولد عن الحزن، أما الأولى، فهي التي يساعدها وينميها انفعال الفرح ذاته، وأما الثانية فهي التي يضعفها ويعوقها انفعال الحزن ذاته، غير أن الفرح أقوى من الحزن، ف"الرغبة التي تتولد عن الفرح أقوى عند تكافؤ كل الظروف، من الرغبة التي تتولد عن الحزن"[٢٠]، غير أن معنى الفرح عنده لا يتضمن أي معنى زهدي أو صوفي تجاه العالم، بل الفرح هو وحدة متكاملة كوجود الإنسان نفسه، لذلك لا تعد الفلسفة الإتيقية عند صاحب الإتيقا "هروبا زهديا من العالم، لكنها تمجيد لمعرفة هذا العالم وعلاقات الفرد بالعالم"[٢١].

أما العلل، فميز اسبينوزا في ما بين العلة المطابقة والعلة غير المطابقة – الجزئية، فأما العلة الفاعلة فهي تلك العلة التي يمكن إدراك معلولها بوضوح وتمييز، وأما العلة غير المطابقة فهي التي لا يمكننا فهم معلولها بها وحدها، "فذهننا فاعل في بعض الأشياء، لكنه منفعل في أشياء أخرى، أي بقدر ما تكون لديه أفكار مطابقة، يكون الذهن فاعلا بالضرورة في بعض الأشياء، وبقدر ما تكون لديه أفكار غير مطابقة يكون منفعلا بالضرورة."[٢٢].

عندما نخضع للخيال مثلا ونعيش وفق التأثيرات الاعتباطية التي تلحق بجسدنا، فإننا نكون منفعلين بالضرورة؛ أما قدرتنا على الفعل، فإنها تكون متقلصة إلى أدنى حد، ومن ثم فهناك تمييز جذري بين الفعل والانفعال السلبي، أي بين كون جسدنا وذهننا موضوعين لتأثير خارجي وكونهما فاعلين للتأثرات. وفي ذلك يقول دولوز: "لا ينبغي

[٢٠] اسبينوزا، **الإتيقا**، مصدر سبق ذكره، ص. ٢٥٢.

[21] Robert, Misrahi, *Le corps et l'esprit dans la philosophie de Spinoza*, op. cit., p. 135.

[٢٢] اسبينوزا، **الإتيقا**، مصدر سبق ذكره، ص. ١٥٣.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

لهذا التمييز أن ينسينا تمييزا أكثر جذرية، وهو التمييز القائم بين نوعين من الانفعال"[٢٣]، فعندما ننفعل، نكون تحت تأثير صنفين من الإحساس، فإما أننا نكون تحت هيمنة الحزن والكآبة، وإما تحت وقع الفرح والسعادة.

إن الانفعال السلبي كما تقدم، قوة سلبية. ما دام لا يعبر عن قوتنا الجسدية والذهنية. وفي هذه الحالة نكون منفصلين عن قوتنا الفعلية. فعندما ننفعل سلبا بالتأثيرات الآتية من الخارج ونحزن لذلك لكونها عاكست قوتنا ورغبتنا، نبتعد عن قوتنا الفعلية ابتعادا كبيرا.

عطفا على ما تقدم، يتضح أن معنى الحسن والقبيح عند اسبينوزا لا يتضمن أي معنى غائي، كما أنه لا يشير إلى أي صفة إيجابية كانت، أو سلبية، بل معناه محايث لأحوال الفكر. على هذا الأساس سيبين اسبينوزا أن الحسن والقبيح مرتبطان بمدى نفعهما أو ضررهما. يقول في هذا السياق: "ننعت بالحسن والقبيح ما يكون نافعا لحفظ وجودنا أو ضارا له، أو ما يزيد قدرتنا على الفعل أو يضعفها، يساعدها أو يعوقها"[٢٤]، ولتوضيح ذلك قدم دولوز مثالا دقيقا مستمدا من المتن السبينوزي: "لا تأكل من هذه الشجرة..."؛ سيفهم آدم الجاهل هذه الكلمات باعتبارها تعبيرا عن تحريم، لكن بماذا يتعلق الأمر في الحقيقة؟ الأمر متعلق بفاكهة الشجرة من حيث هي فاكهة، والتي إن أكلها آدم فإنه سيتسمم، إنها حالة لتلاقي جسدين لا تتوافق علاقتهما المميزة مع بعضهما، فالفاكهة ستعمل في جسد آدم عمل السم، أي أنها ستجبر أجزاء جسد آدم (وبشكل مواز فكرة الفاكهة ستجبر أجزاء نفس آدم) على الدخول في علاقات جديدة، لا

[٢٣] Deleuze, *Spinoza et le problème de l'expression,* Paris, éd., Minuit, 1968, p. 252.

[٢٤] اسبينوزا، **الإتيقا**، مصدر سبق ذكره، ص. ٢٤٥.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

تتوافق مع ماهيتها الخاصة "[٢٥]، بمعنى أن اسبينوزا يميز بين الحسن والقبيح باعتبارهما أمرين أخلاقيين، والحسن والقبيح نمطا إتيقيا في الوجود الذي يقوم أساسا على معرفة العلل، ومن ثم معرفة النتائج، فالأشياء التي تجعلنا نحافظ على وجودنا وتقوي قدرتنا على الفعل والعمل تعد أشياء حسنة، أما الأشياء التي تحل علاقات وتلاقيات جسدنا – فكرنا مع العالم، وتقلص قدرتنا على الفعل هي الأشياء القبيحة.

إن النظر في الحسن والقبيح، يقودنا رأسا إلى الحديث عن الخير والشر عند اسبينوزا، نظرا لأن "الشر يعارض الخير كما يعارض الحسن القبيح"[٢٦]، فالحسن يقابله (المقابلة هنا بمعناها المنطقي) الشر، والقبيح يقابله الخير، غير أن تصور اسبينوزا يعارض ويناهض في هذا السياق، التقليد الفلسفي القديم؛ فالقيم عند اسبينوزا ليست مطلقة، بل نسبية، على اعتبار أن "التمييز بين الخير والشر ليست له قيمة مطلقة أكثر من التمييز بين الكمال واللاكمال، لأن له نفس الأصل، ونفس النطاق، ولهذه الاعتبارات وغيرها يصبح للخير والشر معنى واحدا نسبيا (relatif) وفرديا (individuel)"[٢٧].

يوضح دولوز معنى الحسن والقبيح في المتن السبينوزي قائلا: "يقال الحسن والقبيح بالنسبة، كما يقالان على وجهين، ويقال الواحد منهما قياسا للآخر، كما يقالان معا لحال من الأحوال الموجودة، إنهما يمثلان معنيي التغير الذي يلحق بقوة الفعل، إما تناقض هذه القوة (الحزن)، شيء قبيح، أو تزايدها (الغبطة)، شيء حسن.

---

[٢٥] دولوز، جيل، **اسبينوزا: فلسفة عملية**، مرجع سبق ذكره، ص. ٣٣.

[26] Victor, Delbos, *le problème moral dans la philosophie de spinoza et dans l' histoire du spinozisme*, op. cit., p. 47.

[27] Ibid., p. 50.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

ومن ثم فإن الحسن سيكون، من الناحية الموضوعية، هو ما يقوي قدرتنا على الفعل، ويصير القبيح ما ينقص منها أو يمنعنا عن فعلها، فنحن لا نعرف الحسن أو القبيح إلا عن طريق الإحساس بالغبطة أو الحزن الذي يخلفه وعينا"[٢٨].

يلازم اسبينوزا بين الحسن والخير، والقبيح والشر، كما أنه يحملهما معنى نسبيا وفرديا، مما يعني أنه يمكن للشيء الواحد أن يكون حسنا وقبيحا في الوقت ذاته قياسا إلى الفرد – الجماعة، ولتوضيح ذلك قدم اسبينوزا مثالا في فن الموسيقى، حيث يقول: " فالموسيقى مثلا، حسنة للسوداوي، وقبيحة للمأتوم، لكنها ليست للأصم حسنة أو قبيحة"[٢٩].

يفسر اسبينوزا تنوع الانفعالات وتعدد أوجهها بحسب الاقترانات والعلائق التي تلحق بالإنسان، والسبب الذي يؤدي إلى نشوئها ليس هو العقل – الذهن، بل هو العالم الخارجي بكل تحولاته. ثم إن التوجه الإتيقي لاسبينوزا جعله يخلص البحث في الانفعالات والاتيقا بشكل عام من كل تصور قيمي، لذلك لم يعمل اسبينوزا على إقامة محكمة أخلاقية يتهم فيها الأفعال الإنسانية. يتعلق الأمر، إذن بدراسة هذه الظاهرة المترتبة عن دراسة جينيالوجية، أي عن البحث في الأصول والعلل، وذلك هو البحث الذي يمكن الإنسان من فهم طبيعته.

يخلص اسبينوزا إلى أننا لا نعيش قدرا محتوما؛ فدور الإنسان في قلب وضعه العبودي إلى تحرر، أمر ممكن في أي لحظة وتحت أي ظرف من الظروف. وهو أمر ممكن في كل الحالات التي يكون فيها منفعلا، شريطة أن يقدم المقابل، المتمثل في العمل على إعمال الفهم وتفعيل العقل. ثم إن استطاع أن يكون فكرة مطابقة عن

---

[٢٨] دولوز، جيل، **اسبينوزا فلسفة عملية**، صص. ٦٧-٦٨.

[٢٩] اسبينوزا، **الإتيقا**، مصدر سبق ذكره، ص. ٢٣٥.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

انفعالاته، فلأنها تترتب عن طبيعة واحدة، أي عن ماهية واحدة بمقتضاها يترتب كل ما يمكن للإنسان أن يفعله، فليست هناك محل للازدواجية في ماهية الإنسان، طرف يخص الانفعال وطرف آخر يخص الفعل. إن الحس الواقعي والمادي لاسبينوزا جعله يرى أن "ليس هناك إلا شهوة واحدة ووحيدة بمقتضاها يقال إن الإنسان فاعل أو منفعل "[٣٠]، إنه لا وجود لازدواجية في طبيعة الإنسان.

فالشهوة التي تزج بالإنسان في سجن العبودية هي التي تحرره، والاختلاف يأتي من أن هذه الشهوة توجد تحت رحمة العلل الخارجية، أو تحت سلطة الذهن والعقل. "فقد بينا مثلا، أن طبيعة الإنسان هي كذلك بحيث يشتهي كل شخص أن يعيش الآخرون حسب طبعه...، والحال أن هذه الشهوة هي، عند الإنسان الذي لا يسير وفق العقل، انفعال منفعل، نسميه الطموح الذي لا يختلف كثيرا عن الزهو، وهو عند الإنسان الذي يعيش حسب أمر العقل، فعل أو فضيلة، يسمى بالأخلاقية"[٣١].

لا يتم الخلاص إذن، باستدعاء قوى جديدة في الإنسان، بل باعتماد القوى ذاتها، والماهية نفسها، لذلك " فكل الشهوات أو الرغبات انفعالات سلبية من حيث نشوئها عن الأفكار اللامطابقة، وهي تنضاف إلى الفضيلة عندما تثيرها الأفكار المطابقة أو تتولد منها. فكل الرغبات التي تدفعنا إلى القيام بشيء ما، يمكنها أن تتولد كذلك من الأفكار المطابقة واللامطابقة على حد سواء"[٣٢]، بمعنى أن ما يمكن أن يكون سبب تعاستنا هو نفسه ما يمكننا من التحرر.

من جهة أخرى، لا يتولد هذا التحرر إلا من الفكر وقوته، "فبمعزل عن هذا

[٣٠] المصدر نفسه، ص. ٣٢٦.
[٣١] المصدر نفسه.
[٣٢] المصدر نفسه.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

العلاج الصالح للانفعالات...المتمثل في معرفتنا الحقيقية، لا يمكن تصور علاج أفضل منه يكون متعلقا بقدرتنا، ما دام أنه ليست هناك أية قدرة أخرى للذهن، سوى قوة التفكير وتكوين الأفكار المطابقة، كما بينا في ما قبل "[٣٣]، يعني هذا أنه لا يمكن تصور خلاص متعال وآت من عالم متغير، أو ملكة غريبة عن فهم الإنسان؛ فإذا كانت هناك طبيعة واحدة للإنسان هي التي تكون في الآن نفسه مصدر شقائه وسعادته، فهناك وسيلة واحدة لهذا التحرر هي التي تكمن في قدراته نفسها.

يربط اسبينوزا هنا، بين الجانب الإبستمولوجي والجانب الإتيقي، فالمعاني المشتركة التي رأينا، لها الدور الأساسي في تأسيس المعرفة المطابقة. وتخليصنا من الالتباس والغموض تعود من جديد لتقدم للإنسان وسيلة التخلص من الانفعالات السلبية المكبلة لطاقات الإنسان، إن ذلك يعني أن عمدة الإنسان في التحرر هي المعرفة، هي العقل لا الإرادة، ذلك أن مفهوم الإرادة الذي عول عليه الميتافزيقيون، وبالخصوص الرواقيون وديكارت، يتلاشى ويتراجع مع اسبينوزا، إذ ليست الإرادة بشيء بمعزل عن طبيعة الإنسان التي هي الكوناتوس أو الرغبة، أي لا يمكن تصورها بأنها ملكة غريبة عن ملكات الإنسان الطبيعية، ملكة تفعل كما تشاء ومتى تشاء وتوضع على عاتقها مهمة تحرره وانعتاقه.

فالعقل الذي يتأسس بالمعاني المشتركة، أي العقل الذي هو عبارة عن تجربة حية ومباشرة للحياة، لا العقل بالتصور الميتافزيقي باعتباره ملكة قبلية وفطرية، هو الذي يخلص الإنسان.

وإجمالا، يمكن أن نقول إن موقف اسبينوزا ينبني على تصور أساس هو: أن الإنسان نفسه هو المسؤول عن انعتاقه وتحرره، ما يعني أن كل الوساطات التي أقامها

[٣٣] المصدر نفسه، ص. ٣٢٦.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

الفكر الأخلاقي تتلاشى مع هذا التصور. فما دام مبدأ تحرر الفرد هو ذاته وهو تجربته المعاشة، أضحى من المستحيل تصور وساطة أخلاقية مستمدة من رجل الأخلاق، أو رجل دين مهما كان.

خلاصة:

بهذا المعنى نستشفّ، أن اسبينوزا استطاع أن يدمج الانفعالات في وجود الإنسان بما هو جوهر غير قابل للتمييز فيه بين النفس والجسد، ونظر إليها دون تحقير أو تبخيس على عكس التقليد الفلسفي الذي سبقه، وهو ما لم يتأت إلاّ بالغوص في المحايثة التي تجمع تصوره لله والنفس والطبيعة، وكأننا أمام شكل هندسيّ يستحيل أن يظل على صورته بهدم جزء من أجزائه.

هكذا نفهم لماذا أصرّ اسبينوزا على أن يجعل من الانفعالات المرحة والسعيدة عنصرا من عناصر الاعتقاد، عكس ديكارت الذي عزلها عن براهينه المعقولة على وجود الإله.

اعتمادا على ما سبق، يتضح لنا أنه، وابتداءً من لحظة اسبينوزا، غدت الانفعالات تحمل معنى جديدا، إيجابيا ومعقولا. فهل استطاع العقل الفلسفي الحديث أن يقدم تفسيرا معقولا للانفعالات أم أنه، مع ذلك، ظل قاصرا عن تحقيق مبتغاه؟ وإلى أي حد نجحت المقاربة العلمية الجديدة خاصة البيولوجية العصبية في معالجة هذه المعضلة؟

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

المصادر والمراجع:

- اسبينوزا، الإتيقا، تمهيد الكتاب الخامس، ترجمة وتقديم وتعليق: أحمد العلمي، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ٢٠١٠.
- دولوز، جيل، اسبينوزا فلسفة عملية، ترجمة عادل حدجامي، دار توبقال للنشر، ط١، ٢٠١٥.
- رونيه، ديكارت، انفعالات النفس، ترجمة وتقديم وتعليق: جورج زيناتي، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٩٣.
- Alquié, F, Le Rationalisme de Spinoza, Paris, Presses universitaires de France, 2001.
- Deleuze, Spinoza et le problème de l'expression, Paris, éd., Minuit, 1968.
- Hegel, Leçons sur l'histoire de la philosophie, chap. Spinoza, in Hegel ou Spinoza de Pierre Mecherey, Paris, Maspero, 1979.Cf, Martial, Gueroult, Spinoza, I, Dieu, Paris, Aubier, 1968.
- Robert, Misrahi, Le corps et l'esprit dans la philosophie de Spinoza, Paris, PUF, 1990.
- Victor, Delbos, Le spinozisme, Librairie philosophique, Paris, troisième édition, 1950.

ISSN : *2537-0847* **eISSN :** *2537-0898*